



تعريف بالقرآن

للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

ترجمة الأستاذ الكبير أحمد محمد بري

- ٣ -

فن ناحية هذه ، المباحث ، ليست في مهدها في عالم المسلمين ، يشهد بذلك كثير من المؤلفات العربية التي يرجع إليها المؤلف نفسه في هذا الصدد، لا المؤلفات الخاصة في الإملاء والصوتيات والتلاوات القرآنية فحسب ، بل أيضا التفسيرات وكتب فقه اللغة ومصطلح الحديث والفقه ، وكلها تزخر بهذا البحث .

ومن ناحية أخرى : هذه التلاوات الخاصة في هذا الحيز الواسع بعيداً عن أن يباحقها ضغط من جانب ، السلفية ، ، الأرثوذكسية ، بل تمتاز بطابع قدسي ، وهي ما تزال تدرس في المذاهب السنية ، لا بوصفها قرآناً ، بل بوصفها أحاديث آحاد .

وعلى الرغم من هذه الشواهد فإن صورة التاريخ الكهنوتي المسيحي التي لا شك أن المبشر الانجليزي أكثر ألفة لها يبدو أنها ألحت على الكاتب إلى حد أنها انتقلت معه تقريباً بكاملها ، جرى بها قلبه في المحيط الإسلامي ، فالمؤلف يحاول في الواقع أن يقيم بالقياس إلى النص القرآني شيئاً من التطور يشبه في كثير من مظاهره تطور نص الإنجيل ، فيبدأ بتفرقة في نصوص القرآن تثير الدهشة بين قطع تعبدية ، كتبت على الراجح عند نزول الوحي ، وبين قطع أخرى ليست كذلك (ص ٦) ويؤكد - مناقضاً نفسه على كل حال - أن التنزيل عند وفاة النبي لم يكن جمع (قارن بين ص ٥ وس ٧) ثم ينسك - لاعباً بالألفاظ - الصفة الرسمية بجمع أبي بكر (قارن بين ص ٦ ، ص ٢١٢) ويرجع أخيراً أنه حين فرار عثمان كانت هناك خلافات كثيرة بين مجموعات العواصم الرئيسية المختلفة (ص ٨) ويكتب : أن

ملى الكوفة حينذاك كانوا منقسمين إلى طائفتين ، قبل بعضهم النص الجديد الذى أرسله عثمان ، ولكن الأغلبية أيدت نص ابن مسعود (ص ٨ ، ٩) وكذلك يقدم لنا نص عثمان لا على أنه واحد من جملة نصوص متعارضة لحسب (ص ٩ - ٢٣) بل على أنه نص جديد يعارض المجموعات القديمة والتلاوة على عهد الرسول ، وإنه إنما فرض نفسه فى النهاية لا لامتيازات ذاتية داخلية ، بل بفضل نفوذ مدينة الرسول (ص ٨) .

هذا النهج فى عرض تاريخ النص القرآنى يكتوى ضلالات خطيرة ، وتتطلب توضيحا شافيا يضع الأمور فى نصابها .

فلنذكر أولا : بأن مجموع عثمانى ليس له صفة القدم لحسب ، بل إن الوحدة بينه وبين مجموع أبى بكر تامة (١) ، وأن الدراسات المسيحية الحديثة لتقر تلك النتيجة ، يقرر د شوالى ، ما يلى : « لقد أقننا فيما سبق الدليل على أن نسختى زيد متفقتان ، وأن مصحف عثمان ليس إلا نسخة من مجموع حفصة ، ولا تنفى من ناحية أخرى أن جميع مواد هذا الأخير لا يرجع تاريخها إلى الخليفة الأول لحسب ، بل يرجع بنوام النص إلى الرسول ، والحق أن كل التلاوات مكتوبة أو شفوية سواء فى أنها تنتمى إلى مصدر واحد ، بل يمكن أن تكون بعض التلاوات المختلفة عن النص العثمانى أسبق تاريخيا ، مما هو ثابت فى مجموع عثمان ، على أن هذا وذاك يجب أن يتصل بمهد ما من حياة الرسول ، ولكن يجب أن يلاحظ أن تلك الأسبقية النسبية لا يمكن أن تكون معيار ترجيح ، فإن النص الأتم صحة ليس ضرورة الأكثر قدما ، بل عساه أن يكون الذى نال لمسة اليد الأخيرة ، وأن تعبير « الحرف الأول » فى مصطلح الصحابة مطبقا على التلاوة خارج النص ، لا تعنى التلاوة على عهد الرسول عامة ، بل تعنى التلاوة الأقدم فى ذلك العهد . . . يعنى : الملقاة - المنسوخة - وكذلك ينهار الأساس الذى أرادوا أن يقيموا عليه قيمة هذا النوع من التلاوات ، ولنغض النظر عن تلك الاختلافات التاريخية ، فإن أهم شرط

جوهرى لتأسيس صحة نص إنما هو التأكد من أنه في صورته المكتوبة قد حققه ووافق عليه بما فيه الكفاية المؤات أو مثله ، والذي حدث على وجه الدقة هو أن بعض التلاوات التي لم تتوافر لها جملة هذه الشروط أيام الجمع ، فلم تقبل في المجموع الرسمي أو المصحف العام .

أكثر من هذا زيادة على انهيار الأساس الذي لا علاج له فيما يتعلق بتلك التلاوات أضيف صنف جديد في نقلها اللاحق ، فإن ناشر كتاب المصاحف نفسه يصرح بأنه أدعته هذا اللبس الذي يحيط بالتلاوات غير العثمانية من ثلاث وجهات : (١) من حيث قدمها فقد يشبهه لنا أحياناً أن ثم وضعاً لاحقاً أريد به الانصال بذى سلطان فديم كيا يستفاد من نفوذ اسمه (ص ١٥) .

(٢) من حيث تحديد مصدرها فثم أحوال يبدو التخليط في نسبتها إلى مصادرها (المرجع نفسه) .

(٣) من حيث تعيين صورتها ، فليست الصعوبة في أن ثم تلاوات متعددة منسوبة إلى قارى واحد ، ولا يدري أيها الصحيحة ^(١) لحسب ، بل ثم أحوال تبدو التلاوة فيها مستحيلة لغة (ص ١٦) ،

فوق هذا يعترف مستشرقنا أن التلاوات غير العثمانية قلما تنسب إلى أصحابها بوصف كونها مكتوبة في مصاحفهم ، بل في الغالب بوصف كونها سمعت منهم تلاوة شفوية (ص ٢٤) ولكن مع هذا حينما يجمعها لخريته كاملة في أن يضمها جميعا تحت عنوان مجموع ، بل أنه لا يكتفى بجمعها - ليكبر من حجمها ويزيد من قيمتها التعارضية - مضافا إليها التلاوات التي لا تختلف عن المجموعة الرسمية ، ولكنه يضيف أيضا لحساب هذا المؤلف أو ذلك تلاوات تنتمي لا إلى القارى نفسه بل إلى أحد تلاميذه فقط .

ولكن بعد كل هذا ثم تتألف تلك التلاوات غير الرسمية وما قيمتها ؟
نلاحظ أولا أنها لا تنصب على كل السور ، ولا على أية سورة بتمامها ،
فاذا نظرنا في طبيعتها أمكن أن نميز منها أنواعا مختلفة .

(١) نقل المجموع المزعوم لابن مسعود ، ففي هذا ابن - عاق .

في طائفة أولى ، يتضح الاهتمام : إما بشرح كلمة مفهومة ضمنا نحو : وإسماعيل
يحولان ٢- ١٢٧ ، ، د فنادته للملائكة يا زكريا ٣- ٢٩ ، ، د إلى قومه فقال
يا قوم ١١ ، ٢٥ ، وإما بتكرار كلمة سبق ذكرها نحو : د عن قتال ، وعلى الصلاة ،
وآمن المؤمنون ٢- ١٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٨٥ ، وإما لبسط المعنى نفسه بإضافة عبارة
ثبينة نحو : فضلا من ربكم في مواسم الحج فابتغوا حينئذ (٢ ، ١٩٨) والعصر
ونوابئ الدهر .. بي خسر وإنه لفيه إلى آخر العمر (١٠٣ - ٢ ، ١) ويلاحظ
بوضوح في كل هذا أنه عمل محض يبعد عن صفاء الأسلوب القرآني مرهقا النص
بإسهاب أحيانا لا يكاد يحتمل .

وفي طائفة ثانية تتلخص التلاوة في أن يستبدل بكلمة كلمة أخرى ،
إما مرادفة نحو : يكمل : يتم ، ويوفه : يؤده ، دره : نمله ، الصوف : العهن .
وإما كلمة أخرى ذات معنى مختلف ، إلا أن الكلمتين تتكاملان وكل منهما
تتضمن الأخرى على التبادل مثلا : الحج والعمرة للبيت ، بدل : الحج والعمرة لله
(٢- ١٩٦) .

وفي طائفة ثالثة تتلخص المسألة في مجرد القلب ، نحو : في ظلل من الغمام
والملائكة : والملائكة في ظلل من الغمام (٢- ٢١٠) .

بما تعملون بصير : بصير بما تعملون (٣- ١٥٦) .

على قلب كل : على كل قلب (٤٠- ٣٥) .

وفي النادر يعمد إلى إهمال كلمة : نحو : بما آنتم ، بمثل ما آنتم (٢- ١٣٧) .

إلا الساعة أن تأتيمهم : إلا الساعة تأتيمهم (٤٧- ١٨) .

وفيما يتعلق بالطوائف الثلاث الأخيرة ، ودون تعرض القيمة الأدبية المتقابلة
في مختلف القراءات ، يمكن القول مبدئيا أنه يمكن أن تكون إزاء تلاوات
حقيقية مختلفة كلها مقبول على شرط لإثبات أصالتها التاريخي ، على أنك مع هذا مغري
أن تفترض في بعض عبارات القراءات غير الرسمية شيئا من التوفيق الطارئ على
النص فيما بعد ، في حين أن النص الرسمي يمتاز بأنه يمضى قدما ، بغض النظر عن وجهات

النظر الخاصة، سواء أكانت من النوع الديني نحو : بمثل ما آمنتم ، يأتهم الله في ظلل ، أم من النوع السياسي ، نحو : من المهاجرين والأنصار والذين (٩ - ١٠٠) وليس والأنصار الذين كما كان يعتقد عمر ، أم من النوع اللغوي ، نحو : أن هذان لساحران ، أم من أى نوع آخر ، ولإنا نرى أن هم أصحاب الرسول الوحيد حين أفتتوا نص القرآن إنما كان انطباق كل قطعة انطباقا أميناً حرفياً على النص الذي أملاه الرسول وتلى عليه وأقره لإقراراً نهائياً ، فهذه الموضوعية التامة المطلقة بأقية أبد الدهر شرافاً لهم

ومع هذا فالثرثرة ما تنفك تبدي وتعيد في مسألة ابن مسعود وغيره من أصحاب المجموعات كأن شيئاً كهذا يمكن أن ينال من إجماع الصحابة على المصحف العثماني ، والحقيقة أن أحداً منهم لم ينازع في صحة المصحف الرسمي ، إلا أن ثم قراءات أخر يؤكد أصحابها أن الرسول أجازها دون أن يقدموا دليلاً موضوعياً على تلك الإجازة وهم قد أصروا على الاحتفاظ بها لا كساوية للمصحف الرسمي المجمع عليه أو قائمة مقامه ولكن لتتبع معه . . فكذلك نرى أبا موسى مثلاً يوصى ذويه أن يحتفظوا بمجموعه ويكلموه من المصحف العثماني ^(١) ، وحين جاء الغاضبون إلى ابن مسعود فإنه لم يزد على أن يقول لهم أن كل التلاوات الموصى بها المجازة كلها صحيحة ^(٢) ، وهذا الغضب - إذا كان ثم غضب - له سبب مزدوج : فهذا الصحابي الجليل الذي هو من السابقين الأولين يحرم أن يكون عضواً في لجنة الجمع ، ثم يلزم فيما بعد أن يسلم بمجموعه ليعدم ، ولكن رد الفعل التلقائي لم يقاوم التفكير طويلاً ، فابن مسعود كان غائباً يؤدي عمله الرسمي في العراق منذ أمد بعيد قبل الجمع ، ولم يكن معقولاً أن عملاً عاجلاً كهذا يجب أن يقف انتظار حضوره الذي لم يكن له ميعاد ، في حين أن كثيراً غيره من الصحابة يملكون كما يملك وأكثر مما يملك بمجموعات دقيقة أجازها الرسول ، أما نسخته التي ضمنها بعض الدروس الخاصة أو التلاوات التي لم يتم عليها إجماع ، فلقد كان حظها كحظ غيرها من مثيلاتها ^(٣) بمعنى أن تفقد الطابع الإلزامي المحقق وتبقى موضع ثقة محدودة تحت المسؤولية الشخصية ، وإذا كان لإعدام

(١) داود : ص ٣٥ . (٢) المراجع نفسه : ص ١٨ .

(٣) ينظر فيما مضى مسألة عمر ص ٢٦ ، ومسألة حفصة ص ٢٢ هامش ١ .

تلك النسخ الخاصة له مظهر عنيف حينذاك إذ لم يكن شاب القرآن أية شائبة ، فهو يكشف إلى أي حد كان الخليفة صائب النظر بعيدة (١) ، فإن المسلمين مدينون لهذا العمل الإلهامى بوحدة كتابهم المقدس وثنائه . . فليصف إليه فيما بعد ما يراد من القواعد والصلوات الخارجية (التي اخترعها أبو السعود الدولى وأتباعه نصر ابن عاصم ويحيى بن يعمر والحسن البصرى والخليل بن أحمد) فإن الجسم مع هذا باق أبداً ثابت يتحدى حدثان الزمن .

إن بقاء بعض الحروف الزائدة والكلمات المشتبكة فى نسخ القرآن مخطوطة ومطبوعة حسب قواعد الإملاء العتيقة التى احتفظ بها فى الكتابة القرآنية لشهادة بليغة على تلك الأمانة التقية التى انتقل بها ذلك الأثر الخالد من جيل إلى جيل حتى انتهى إلينا .

الباب الثالث :

كيف بلغت رسالة الإسلام للعالم :

كل الناس تعرف فى الجملة ما ذا تكون رسالة القرآن التى تسمى الإسلام ، ولكنهم يعرفونها معرفة كثيراً ما تغلو فى الاعتماد على حد ظاهرى . أنها ذلك الإصلاح الدينى الاجتماعى الخلقى الذى ما أن ولد على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر فى بداية القرن السابع من التاريخ الميلادى حتى مضى قدماً منتصراً نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وها هو ذا فى زمن جد قصير نسبياً ، يسود على نصف العالم المعروف حينذاك . حدث لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، وهو ما ينفك يسترعى انتباه الإنسانية ويستثير استطلاع مؤرخى السنن والأديان ، وعبثاً يحارلون أن يجدوا له نظيراً فى التاريخ القديم ، موازين بينه وبين فتح الاسكندر الأكبر أحياناً ، الذى كان انتشاره سريعاً حقاً ، ولكنه لم يحدث أى تغيير ، لا فى تفكير الأمم ولا فى عاداتها ، ولأول نسمة من الإسلام ولى ولم يبق وراءه

(١) على أنه لم يقم بمـ هذا العمل من تلقاء نفسه دون مشورة الأمة : فى خطاب انتهت دراسة أصحاب المصاحف إلى الاعتراف بصحته ، حيث يدافع خلف الخليفة عن هوى سلفه بده ، يصرح على أن هذا الإجراء العنيف إنما اتخذ باتفاق جميع الصحابة الحاضرين ، ويضيف الإمام : لو أن عثمان لم يسمه لأتمته أنا (داود ص ١٢ و ٢٢) .

أى أثر، وأنا لن نذهب إلى حد القول بأن عمل الاسكندر لم يكن إلا لغوا مطلقا، فلقد رجع في الأقل طريق الشرق بسلسلة من المدن الجميلة التي ازدهرت بها الحياة الاقتصادية، هذا صحيح وليس أقل منه صحة أن هذا العمل لم يتعد حدود المدن، فإن كتلة الشعوب أو الفلاحين الذين قيل بحق أن من لم يفتح قلوبهم لم يفتح شيئا، قد احتفظوا بطوائعهم الخاصة: اللغة والعادات والنظام السياسى والاقتصادى كما هم لم تمس، بل كان الأمر كذلك في المدن نفسها، فإن «الهليانية» مثله في الجهاز الإدارى لم تنعم إلا عند قلة من الطبقة المتوسطة «البرجوازية» أفحن في حاجة إلى القول بأن المستعمرين اليونانيين لم يلبثوا أن أعطوا بأيديهم واستسلموا لفتحهم جدد، فإلثت تلك المدن أن أفلست تدريجيا تحت الامبراطورية الرومانية.. وكما تكون لك فكرة عن هذا الطابع العرضى لتلك العبارة غير المتناسقة يمكن أن تذكر بعض التواريخ المعروفة، فعلم أنه بعد نحو عشرين سنة من موت الاسكندر تقطعت امبراطوريته إلى ثلاث ممالك سنة ٣٠١ قبل الميلاد، ثم تمت على التدرج عملية تقطيع يمكن رسمها هكذا: بعد خمسين سنة أخذ البريون آسيا العليا (سنة ٢٥٠) وبعد ستين سنة تسقط آسيا الصغرى تحت السيطرة الرومانية (سنة ١٩٠) ثم نحو خمسين سنة وترى فلسطين تكون دولة يهودية مستقلة (١٤٤ - ٦٤) وفي نحو التاريخ نفسه تجد الدولة الام نفسها (اليونان سنة ١٦٤، ومقدونيا سنة ١٤٢) تنحدر لإقليمها رومانيا، وإذا بقيت الملكية المصرية أطول مدة بعيدا فلم تقع تحت نير رومية إلا سنة ٣١، فإن انهيارها السياسى كان قد بدأ بعد الثلاثة البطالسة الأولى سنة ٢٢١، ولكن المشكلة الحقيقية ليست هنا، فنحن إذا نحينا جانبا المظهر المادى للدنية، ودخلنا في حيز الفكر، فإن مما لا شك فيه أن الفاتح المقدونى بدل أن ينقل معه التصورات اليونانية تبني في بساطة تامة الأفكار الشائعة في البلاد المفتوحة وتسل إلى آلهتها.. وورثته مثله لم يتطوروا في هذه السيل، وبصفة عامة في العهدين اليونانى والرومانى نجد الأفكار الفلسفية والدينية - وكانت جد مزدهرة حينذاك في الشرق وبخاصة في الاسكندرية - ليست صادرات هليانية، بل نجدها في جوهرها دعوات شرقية استخدمت اللغة اليونانية لتنقل إلى أوروبا باسم الأفلاطونية الجديدة

والمسيحية ، بحيث يكون من حقنا هنا أن نقول أن الشرق هو الذى فتح فاتحيه . .
ثم جاء الإسلام أخير فتغير ما بين يوم وليلة ، لا الواجهة السياسية والاقتصادية في
كبريات المدن هذه المرة ، بل الروح الإنسانى في أعماقه عند الشعوب كلها ، فاللغة
والفكر والقانون والأمانى والعرف وتصور الخلق والخالق كل أولئك تحول
دفعة واحدة .

وهذا الفتح الروحى لم يستول على النفوس التى خامرها بطريقة صالحة لدوام
البقاء فحسب ، ولكنه يمنح إلى الكسب الجديد حيثما ترك يعرض نفسه فى أى مكان
ببساطته وصفائه الأولين ، وتلك مشاهدة لا يساوقها إلا نشوزا ذلك الرأى الشائع
من أن الإسلام لم يعم إلا بجد السلاح .

أفليس نفوذه الفعال فى أيامنا هذه دليلاً يقع تحت الحس على أنه يعمل بقوة
باطنية وصلة خاعة بالطبيعة البشرية وحقائق الأشياء ؟ نعم إن القوى المناوئة فى
زمن مضى بما أفعمت من كره . وما عمدت إليه من وسائل العنف فى اضطهاد
الدعوة الناشئة وإرهاقها قد اضطرتها إلى أن تقاوم لتضع حداً لذلك الظلم الذى كان
قد استمر زمناً جد كاف ، وما أن أعلنت المقاومة حتى قامت القوى المعادية من
كل جانب تأتلف ضد هذا النظام الجديد الذى يريد أن يقوم مقامها . . وتتوالى
الضربات إثر الضربات ، ويكون لزاماً أن ينتفضى زمان قبل أن يستقر السلام . .
وإذا نظرنا فى الأمور كما هى فلن يسمح لنا شيء أن نرى فى تلك المأساة العامل
الجوهري أو العمدى فى انتشار رسالة الإسلام ، فإن السنين العشر الأولى للدعوة
المحمدية ترينا أنه على الرغم من كل العقبات كان مجرد عرض الدعوة يكسب مؤمنين
جداً كل يوم ، كما يشهدنا كذلك بأية شجاعة وعظمة احتمل الرسول وأتباعه
لا سخريه مواطنهم وإهاناتهم فحسب ، بل العزل والمنع من أى اتصال بالشعب ،
وأحياناً التعذيب والمثلات فى أشنع صورها (١٦ - ١٠٦ و ٢٩ - ١٠) مما اضطر
كثيراً من المسلمين الأولين - ومنهم بعض الأشراف كعثمان ، وبنت أبى سفيان
أم حبيبة إلى أن يبحثوا عن ملجأ (١٦ - ١١٠) عند ملك الحبشة ، ولكن مضرب
المثل العجيب فى ذلك العهد ، والذى يدل على الأمر الإعجازى إلى أبعد حد لتلك

الدعوة السلبية إنما هو أهل يثرب التي سميت بعد المدينة . . فقبل أن يروا وجه الرسول أو يسمعوا صوته بزمن طويل ، بل لمجرد سماع الدعوة القرآنية عن طريق حجاجهم استقبلها عرب المدينة بما شاء الله من حفاوة ، حتى لم يبق أسرة ليس فيها كثير من المزمنين ، أكثر من هذا فإن العداوة المضطربة بينهم منذ ربع قرن^(١) خمدت فجأة كأن ريحاً إلهية أتت عليها (٨ - ٦٣) فانقلبوا من أعداء ألداء إلى أخوة أشقاء (٣ - ١٠٣) وفي نفس الوقت فإن النظم الإسلامية التي ما كان يمكن أن تراول علانية في مكة بدأت تباشر جماعة وفي وضع النهار (وكذلك أقام أبو إمامة صلاة الجمعة قبل الهجرة بسنة) في هذه المدينة الحفية المضيفة ، وعمما قريب سيستقبل هناك المؤمنون كلهم تقريبا بعد أن تركوا بيوتهم وأموالهم (٥٩ - ٨) واضطهدوا كثيراً أو قليلا بمكة .

وحق الآن كان كل شيء يمر في سلام ووقار من ناحية المسلمين في الأقاليم ، فلا شيء يدل على أن القوم سيحتكمون إلى القوة ، وبعد أن اطمأن الرسول على مصير أصحابه ووصولهم سالمين ، وعلى الرغم من الخطر الذي يهدد شخصه لم يتعجل اللحاق بهم ، فلم يكن يريد أن يغادر مركز أداء واجبه دون إذن صريح من الوحي ، معتقداً أنه يجب عليه أن يمد بقاءه ، وأن يوالى دعوته في البلد الذي ولد فيه حيث بقي وحده مع صديقين : أبي بكر وعلى .

وفي ليلة المؤامرة المدبرة على حياته تلقى وحياً ، الأمر الإلهي بالرحلة . . بل أنه في الساعة التي بدأ فيها تنفيذ المؤامرة الدنيئة غادر المدينة سراً بصحبة أبي بكر أحد الصحابيين ، ووكل إلى الآخر مهمة تفتية آثاره . . وبعد النجاة الإجمالية أما كان واجبه أن يفكر في الانتقام من أعدائه أولئك الذين أرادوا قتله ؟ كلا ، وإذا تتبعنا مراحل نشاطه في السنة الأولى من الهجرة ، وجزء كبير من الثانية فإننا نجد جهوده - على العكس - متوفرة على الأعمال القدسية والبنائية : بناء المسجد ، تنظيم أحكام الصوم ، وضع نظام الأذان للصلاة ، التنظيم الداخلي السلي للجتمع ؛ فكل شيء حتى هذه اللحظة كان يدل على أن المسلمين سيولون ظهورهم ، حتى في

(١) لامانس : عهد الإسلام قبيل الهجرة ص ٢٦٥ .

الصلاة ، نحو وطنهم القديم ، في ذلك الحين في نحو منتصف السنة الثانية بدأوا يتعرضون للقوافل التجارية لمضطهدهم ليذهبوا للقائم فيما بعد .

من أين هذا التحول وهذا التغير المباغت الوضع ؟ إنه ليستحيل علينا - وآراء المستشرقين غير المتحيزة متفقة في هذا الصدد - أن ننسب ذلك إلى الحالة النفسية الشخصية للرسول ، فإن الأعمال الحربية ليست في الواقع من طبعه ولا ذوقه ، بل على النقيض ، فإن حله وعبوه عن أعدائه كانا في الغالب مدعاة عتب القرآن عليه (٨ - ٦٥ و ٩ - ٨٠ / ١١٣) ولقد حفظت الآثار عنه مجموعة كبيرة من مآثر العفو عن جرائم ارتكبت ضد شخصه وأشخاص أتباعه (١) ، يريد بعضهم أن يعلل هذا الاتجاه الجديد بضغط شعبه عليه ، فالروح الحرب خصيسته الجوهرية . . ولكن العلماء الذين تعمقوا في دراسة الغريزة العربية لا يستطيعون أن يوافقوا على هذا الفرض ، فهم قد بينوا على العكس إلى أي حد يمتت العرب ، حتى أعراب البادية ، لإهراق الدم (٢) ، إنهم يؤكدون لنا أن البدو لا يسعون إلى الحرب ، بيد أنها حين تفرض نفسها يقبلونها ولا يقبلون المذلة والعار ، حتى في الإغارة التي كانوا يشنونها بعضهم على بعض كانت القبائل البدوية تعنى إلى أبعد حد بتجنب الأحداث الدامية ، إذن لا في نفسية الشعب ولا في نفسية رئيسه يمكن أن نجد تعليلاً مرضياً لهذا التحول الجديد ، فلا بد أن يكون قد حدث شيء في وقت ما ترتب عليه رد الفعل هذا . . والواقع أن القرآن يعرض علينا مشاهد تبلغ الغاية في الإنارة ، لقد رأينا في هجرة كيف أن الرسول يتأخر بعد إخراج أصحابه كيلا يرحل إلا في آخر لحظة ، ومن هنا يمكن أن نستوحي أنه لم يترك وراءه شيئاً يهتم له ، كذلك يمكن أن يستوحي

(١) مثلاً عفو عن البيعت القرشي الذي جاء ليقتاله بعد بدر ، والمرأة اليهودية التي حاولت سبه في خيبر ، وذلك الذي تهجم في وحية على ابنته الكبرى زينب أثناء الهجرة وهي حامل فأسقطت ، ومعلوم كيف كان حمله على أصحاب الإنك الذين رموا زوجها البراء عائشة . أما سلوكه السلمى الكريم في أثناء فتح مكة وبعد الفتح فما يثير العجب حقاً . (انظر ج . ب سانت هيلير . محمد والقرآن ص ١٢٥ - ١٣٠) .

(٢) لامانس : عهد الإسلام ص ٢٤٧ .

فلا أمل في إيمان جديد بتلك المدينة المعاندة ، ولكن الواقع أن الأمر لم يكن كذلك فالقرآن يسمنا تلك الصيحات المتأزمة المنبثقة من المسلمين الذين لم يعد لهم سند رجالا ونساء وأطفالا بمكة يتعذبون ، إنهم آمنوا فهم يستغيثون الله من ظلم القوم الكافرين (٤ - ٧٥) ذلك أنه على عدم تجدد الدعوة ما تنفك البذور القديمة - موعظة وقدوة - محصية ، وبقدر ما يخفق الإيمان قويا يشتد العنف والتعذيب لحنقه في غير تأثم ، وتسقط الضحايا دون دفاع .

ما هذا ؟ .. الآن المهاجرين والذين آوهم يسمعون الآن في ملجأ أمين بحرية كاملة في الإيمان وإقامة الشعائر يكون من حقهم أن يتفوقوا في أنانيتهم ، وأن يظفروا غير مكترئين لمصير إخوانهم ، أي يمكن - عقلا ودون تحيز - أن يحال بين الحقيقة والفضيلة وبين حقهما في العون ، وأن تترك الاستبدادية ، تسلمح ضدّها ؟ على كل حال هذا العون المادى مطلوب عدلا لم يباشره المسلمون بسهولة في الأقل بالصورة الحربية ، هنا أيضا يكفي أن يرجع إلى مصدر وثائقنا الثمين ، ذلك المصدر الذى ترفع الآن صحته وأمانته التاريخية عن مستوى أى شك عند أى عالم كان ، أعنى القرآن لتبئين التردد والتراجع اللذين أبادهما الأحرار أمام المشروع العسكرى الذى كانت غايته تحرير الأسرى ، لا لويلات الحرب (٢ - ١٦) وغريزة حب البقاء فحسب (٤ - ٧٧ / ٧٨) بل لظروف أخرى جد عسيرة كانت تجعل النضال فيما ترى أعينهم مستحيلا تقريبا . . أفنتدفع على غير استعداد لمواجهة عدو هو في طريقه إلينا ، وهو أكثر منا عددا وعدة (٣ - ١٣) أو لا يحسن أن نكتفى ببعض الإجراءات الانتقامية ^(١) غير المباشرة بحيث نشعر قريشا مقدرتنا على الرد ، ونحملهم على أن يحسنوا معاملة إخواننا . . وأنه لأولى أن نعرض عبر التجارة القرشية بدل الصدام بجيشها المحارب (٨ - ٧) كذلك كانوا يتدبرون في

(١) معلوم أن المسلمين المهاجرين تركوا أملاكهم وأموالهم بين أيدي مضطهدينهم .

(٢٢ - ٤٠) أفلا يكون لهم حق التويض الجزئى من تجارة هؤلاء ؟ .

فهذا ما يسبب « سانكلير » بثبات النهب (مصادر القرآن ص ٢٤٦) .

المعسكر الإسلامي ، لكن الواجب يلقي أوامره ، وتدق ساعة التضحية الكبرى ،
فلقد أراد الله أن يحسم المعركة بين الحق والباطل (الآيات السابقة نفسها) .

فليس على المسلم إذن إلا أن يسلم لأمر الله حتى « يحيى من حى عن بينة ،
ويهلك من هلك عن بينة ، (السورة السابقة الذكر ٤٢) أولئك من أجل مثاليتهم
وهؤلاء من أجل أصنامهم (٤ - ٧٦) تلك كانت الظروف التي انطلقت منها شرارة
الصراع الأول بعد السلاح ، فظالما كانت الاضطهادات شخصية حين كان المسلمون
بمكة كان لزاماً عليهم ألا يردوا أى رد عنيف ، وأن يحمّلوا جراحهم في شجاعة
(٤ - ٧٧) أما الآن وقد أخذ عنف الوثنيين يأخذ صفة العموم ، وينقلب صراعا
حربياً حاسماً لا لبس فيه (٢ - ٢١٧) فإن المؤمنين أخيراً بعد عشر سنين قد
أذن لهم (٢٢ - ٢٩) ثم فرض^(١) عليهم (٢ - ٢١٦) أن يؤازروا إخوانهم
الذين ليس لهم حماية (٤ - ٧٥) .

(١) ثم تحول هذا الإذن إلى إلزام في ظروف سيئة جدا ، فلنستدرى كيف يؤكد
سان كلير أن القانون القرآني عسديل بنسبة نجاح جيوش محمد : ص ٢٧٩ ، ثم يقع في أخطاء
أخرى في الباب نفسه : أولا حين يعكس معنى الآية (٢١٧ - ٢) التي تمنع كل اعتداء
أثناء الأشهر الحرم من ٢٧٦ ، ثانياً : بعد وسائل السكيت التي اتخذت ضد الارهابيين
(سورة ه آية ٢٣) شكلا جديداً للحرب معبراً عن مرحلة ثالثة في هذا التطور من ٢٧٧ .